

آثار الحروب الصليبية في جغرافية الصفحات الشرقية الإسلامية

الدكتور عبد الله ناصري طاهري

تمثل الحروب الصليبية فصلا مهما في حياة الشرق والغرب والتصادم بين الإسلام والمسيحية، بصرف النظر عن ارتباطها بآي من الدينين أو المواجهة بين حضارتي الشرق والغرب، الحروب الصليبية لم تعلن بصفتها أول تجربة استعمارية للغرب خارج حدوده، بل كانت استمرارا في السياسات التوسعية التي كان يتبناها حكام الغرب. كانت تلك الحروب، من حيث كونها عاملا في يقظة أوروبا وانتشالها من ظلام التوحش إلى ساحة التمدن - كما يقول برنارد لويس - أول حركة غربية نحو بسط سلطتهم. وفيما يتعلق بتأثير الحروب الصليبية في المغرب، فهناك تأليف عديدة للغربيين، وللمسلمين أيضا في العصر الحديث، ولكن الذي لقي القليل من الاهتمام هو تأثير تلك الحروب الطويلة في البلاد الإسلامية، وعلى الأخص في شرق البحر الأبيض المتوسط. وهذا ما يتناوله الكاتب في هذا المقال.

ان عدم وجود نظرة تحليلية إلى الحروب الصليبية كان واحدا من أهم نقاط الضعف عند المؤرخين المسلمين. ان ما نقراه في المصادر التاريخية لا يتجاوز وصف الوقائع العسكرية وبعض الأحداث السياسية، من دون أي تحليل أو دراسة للدوافع والآثار.

و قبل الدخول في صلب الموضوع، أي دراسة آثار تلك الحروب في العالم الإسلامي، لابد من الإشارة إلى نقطتين اثنتين:

الأولى هي أولا ضعف التدوين التاريخي عند المسلمين، وهذا يتضح عند دراسة النصوص التاريخية عن الحروب الصليبية في الإسلام والمسيحية، بعضهم، مثل غابرييل، يشير إلى شعور الاعتقاد بافضلية المسلمين على الغرب [غابرييل، 98]، و ثانيا عدم عناية المسلمين بالتدوين الموضوعي للتاريخ، وخاصة في تلك الظروف العصيبة، التي كان الإسلام يمر بها. ان الخصومات والمشاجرات الطائفية والمذهبية، وخاصة بين أهل السنة والشيعية الإسماعيلية، كانت تحمل كل طرف على الاعتقاد بأن الطرف الآخر هو العدو، واضعا الهجوم الصليبي في المرتبة الثانية بعد ذلك⁽¹⁾.

الثانية أسباب الحرب التي يجب البحث عنها في الغرب، لا شك في ان الدافع الديني كان من أهم الأسباب، كما يتضح في الكلام المعروف الذي جاء على لسان البابا أوربانوس الثاني في مجمع كلرمون بفرنسا⁽²⁾. كما ان النظرة الإسلامية ترى الدافع الديني من أهم الأسباب، وذلك لان الخصومة بين الإسلام والمسيحية واليهودية كانت منذ القديم لازمة تاريخية لا يمكن تجنبها. يقول الله تعالى في القرآن المجيد: «لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»⁽³⁾ [البقرة/120] اعلن رينالد دوشاتيون، الحاكم الصليبي على كرك⁽⁴⁾ - المعروف في النصوص العربية باسم ارباط و يعتبر من الد أعداء المسلمين - ان هدفه هو مهاجمة الحجاز و هدم مقابر المدينة والكعبة في مكة [دورانت، ج 4، 799] من مؤرخي الحروب الصليبيين الغربيين، المؤرخ المجهول فوشه دوشارتر، و ريمون داجيل، وويليام صوري، و ألبرت داكس، و جوانفيل، و بودري دي بوركلي، و رابرت و من المعاصرين ارنست باركر، و ستيفن رانسيمن، و رنه جروسه، يعتقدون بان الحروب الصليبية كانت دينية [ناصر، 1373 هـ. ش 1994 م، الفصل الاول]، ان واحدا من

اوضح اسباب اعلان الحرب كان الحالة الاجتماعية في اوروبا. كما ان سلطة الملاكين على الشؤون الاقتصادية، و القحط و الجفاف و شيوع الامراض المختلفة، كالمطاعون، كانت تقلق الغرب. ان حرمان افراد العائلة - باستثناء الابن الارشد - من ارث الاب، و رغبتهم في الهجرة الى الاراضي الخصبة بهدف الحصول على الرزق، كان من الاسباب المهمة لتلك الحروب الواسعة، بالاضافة الى الاهداف الاجتماعية و الاقتصادية المذكورة، تجب ملاحظة موقف الجمهوريات الثلاث، و جن وبيزا، في الحرب [ناصرى، 64-65]، حتى يمكن بهذه الطريقة بيان اهمية الاهداف الاقتصادية في اشغال نيران الحروب الصليبية.

كذلك ينبغي ان لا نغفل عن الجذور التاريخية لتلك الحرب. كان البابا جريجوري السابع منذ البداية يحمل في راسه فكرة الحرب مع المسلمين، ففي حرارة المبارزة مع هنري الرابع، قال:

التضحية بالنفس في سبيل تحرير الاماكن المقدسة احلى في نظري من حكم «العالم باسره» [دورانت، ج 4، 785] في المغرب الاسلامي قام منصور بن ابي عامر⁽⁵⁾، بهدف تحرير الاندلس في سنة 352 هـ (963م)، بحرق مدينة سنت جيمز في (كامبوستلا) المقدسة عند المسيحيين، بعد بيت المقدس، و منذئذ ابدى البابا و الكنيسة اهتماما اكبر بقضايا الاندلس، فطلب غريغوري من الامراء ان يساهموا في اعداد الجيوش لحرب المسلمين [رانسيما، 1371هـ، 115] ان حرب زلافة سنة 479 هـ (1086م) التي وقعت بين المسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين (رئيس دولة المرابطين)، و المسيحيين بقيادة الفونس السادس ملك كاستيل، و التي انتهت باندحار المسيحيين، كانت ما تزال تؤلم الصليبيين⁽⁶⁾.

و حرب مناجرد او ملازجرد (464 هـ/1071م) بين الب ارسلان و رومانوس ديوجانوس، امبراطور بيزنطة، التي ادت الى هزيمة المسيحيين تلك الهزيمة المنكرة بوقوع الامبراطور في الاسر، كانت من تجليات الحروب التي وقعت بين المسلمين و المسيحيين⁽⁷⁾. و قبل نحو قرن من ذلك التاريخ قام سيف الدولة الحمداني، رئيس الدولة الشيعية في حلب، بمحاربة الروم اربعين مرة⁽⁸⁾.

البابا الجديد، اوربانوس الثاني، و بالذهنية التاريخية التي كان يحملها، مثل سلفه غريغوري، سعى الى التعبئة العامة ضد المسلمين، فتمرك سنة 1059م من روما الى شمال ايطاليا، و عقد اول اجتماع صليبي في مدينة بياكنزا، استجابة لطلب امبراطور روما الشرقية لتقديم الغرب العون له في حربه ضد المسلمين. و لكن بالنظر للاختلافات بين البابا و الامبراطور، لم يحصل شيء [محمود العروسي المطوي، 54] الا انه بعد بضعة اشهر تحقق هذا الامر في مجمع كلرمون.

و من جهة اخرى، و على العكس من القرون الاولى لحياة المسيحية التي كانت تعتمد على الجانب الالهي للسيد المسيح اكثر من جانبه البشري، منذ اوائل القرن الخامس الميلادي و تاسيس المذهب النسطوري و تجليل المعراج و صلب المسيح، اصبح الحج الى بيت المقدس من شعائر المسيحيين الكبرى، و شيدت ههنا، ام قسطنطين امبراطور روما الشرقية، كنيسة القيامة. و في القرن العاشر، عند استتباب شيء من الامن للغربيين في البحر الابيض المتوسط، ازداد عدد الحجاج الى بيت المقدس، و هذا التحسن في ظروف الحج، كما يقول رانسيما، كان له تاثيره في الفكر الديني بحيث ان الحج الى بيت المقدس اعتبرت كنيسة بمثابة الاستغفار و التوبة من الاثم [رانسيما، 62] لذلك كان من الطبيعي ان يكون تحرير كنيسة القيامة و قبر المسيح احد اسباب نشوب الحروب الصليبية.

كثير من حجاج بيت المقدس عند رجوعهم كانوا يطرحون قضية عدم وجود امان للمسيحيين، مع انه قبل الحروب الصليبية، خلال حكم الفاطميين في فلسطين، كانت لهذه الدولة علاقات حسنة مع المسيحيين و صرفت مبالغ كبيرة لترميم كنيسة بيت المقدس [دورانت، ج 4، 738] جاء في رحلة ناصر خسرو: «كل سنة ياتي خلق كثير الى هناك للزيارة، و ملك الروم ياتي في النهاية بحيث لا يعلم به احد» [ناصر خسرو، 1370 هـ. ش، 44] و يعتقد رانسيما، الذي يحمل شيئاً من التعصب ضد المسلمين، ان امن المسيحيين في الحكومة الاسلامية اكثر منه في الحكومة الرومانية [قديري قلعجي، 1399هـ، 29] هذا المؤرخ نفسه ينقل عن دائرة المعارف الاسلامية، مؤكدا ان في عصر تنتش السلجوقي، و ارتق، عامله على بيت المقدس، لم يظهر اي عداء ضد المسيحيين⁽⁹⁾ [رانسيما، 99] و في كتاب تاريخ بطريق الاسكندرية يقول ان حكم الاتراك في فلسطين كان افضل بكثير من حكومة فرانكني التي جاءت بعدهم [رانسيما، 103]. ان الغربيين، بهذه النظرة الدينية، و ماضيهم التاريخي و الحاجات الاجتماعية و الاقتصادية، هجموا على المناطق الشرقية من البحر الابيض المتوسط، او ارض اللين و العسل. الا ان هذا الهجوم الخارجي و حضور الصليبيين الظالم في الجانب الآخر من البحر الابيض المتوسط (الذي دام نحو قرنين) لم يكن كافيا، و انما الحالة الاجتماعية في العالم الاسلامي كانت بحيث انها ساعدت على تقدم العدو و ابقائه في تلك المنطقة.

الحالة في العالم الاسلامي

الخلافة في بغداد كانت اشبه بمؤسسة تشريفاتية، و الخليفة كان شخصا عديم الارادة و ضعيف الشخصية، و لم يكن قادرا على القيام بالتعبئة العامة، لا معنويا و لا عسكريا. ان شمس عظمة التركمان التي كانت قد صاغت امبراطورية السلاجقة العظمى افلت بعد موت ملكشاه، و بقي كل جزء من تلك الدولة الكبيرة السنية المذهب بيد امير او اتابكي. و الفاطميون الذين كانوا يضاؤون السلاجقة من حيث القوة، كان مصيرهم مصير السلاجقة بعد موت ثامنهم، المستنصر بالله. كان الانحطاط الاخلاقي و السياسي في ساير نقاط شمال افريقيا، مثل الاندلس و صقلية، دليلا على ضعف الامبراطورية الاسلامية. و كانت جميع الدول الاسلامية في نزاع دائم مع بعضهم (باستثناء الدولة الفاطمية) على الرغم من انها كانت تطيع الخليفة في بغداد و تدين بالولاء الديني للخلافة العباسية. يقول ابن الاثير:

«تفرقت فيه بالمسلمين الآراء و اختلفت الاهواء و تمزقت الاحوال». {ابن الاثير، 1408هـ ج 6، 221} الا ان اهم دافع لاستمرار الحروب الصليبية و توسعها في الجغرافية الاسلامية هو النظرة التي كان يحملها فقهاء اهل السنة عن المذهب المخالف، خاصة الاسماعيلية، و من الوجوه البارزة في هذا الخضم هو ابو حامد محمد الغزالي الذي بين نظرية مشروعية الخلافة و الحكومة النابعة من القوة، و ايد في كتاباته عزم الخليفة و الحاكم، معتبرا المخالفين ضد الدين و اهدر دماءهم⁽¹⁰⁾. واستنادا الى هذه النظرية افتى بقتل الشيعة، و الاسماعيليين بصفة خاصة، و اتباع الخلافة الفاطمية. و لكنه، على الرغم من حضوره في الشام و مشاهدته المذابح الصليبية بنفسه، لم يصدر اي فتوى ضدهم، و لم يحرض الخليفة و لا السلطان و لا الناس على الجهاد ضد الكفار، و قد حاول بعض الباحثين العرب الذاهبين مذهب الغزالي ان يسوغوا سكوت الغزالي ازاء الصليبيين بشكل من الاشكال.

اعلن الدكتور عمر فروخ، في مؤتمر احياء ذكرى الغزالي الذي عقد في دمشق سنة 1961م، ان سبب سكوت الغزالي كان مرضه النفسي و اتجاهه نحو التصوف، بمثلما فعل كل من محيي الدين بن العربي و ابن الفارض بصفتهم من ابرز وجوه التصوف يومذاك و لم يصدروا اي فتوى ضد الكفار. و اذا كان هذا التسويغ مقبولاً بالنسبة لامثال ابن العربي و ابن الفارض طبقاً لمشربهم في التصوف الفلسفي، فانه لن يكون مقبولاً لدى الغزالي الصوفي و المتعصب في الدين و ضد الفلسفة، و ذلك لانه كتب اكثر ما كتب ضد الاسماعيلية خلال تلك الفترة من ازمته الروحية.

الدكتور زكي مبارك، في كتابه الاخلاق عند الغزالي، يعتبر انشغال الغزالي بالاوراد و الاذكار و الاعتكاف سبباً في سكوته، مؤيداً بذلك رأي عمر فروخ. اما الدكتور عبدالكريم عثمان فيعتقد ان الغزالي لم يكن في الشام اثناء احتلال الصليبيين بيت المقدس، لذلك فلا لوم عليه [عبدالكريم عثمان، بلا تاريخ، 24-27] ان الحرب الصليبية كانت قضية كل المسلمين و العالم الاسلامي. لذلك كان على الغزالي، حيثما كان (في خراسان او في بغداد او في الشام)، و بصفته مجدد الثقافة السائدة يومذاك، اي التسنن، ان يتخذ موقفه و يصدر فتواه⁽¹¹⁾.

و ثمة باحث عربي معاصر آخر ممن سوغوا خطأ الغزالي هو الدكتور عبدالله الشرقاوي الذي يقول ان رد الغزالي على المسيحيين في كتابه الرد الجميل لالوهية عيسى بصريح الانجيل⁽¹²⁾ انما هو استنكار و تخطئة للحروب الصليبية.

الباحث العربي المعاصر الآخر، احمد عرفات القاضي، في كتابه الفكر السياسي عند الباطنية وموقف الغزالي منه، يسوغ الامر تسويغاً آخر و يبرئه من الخطأ. لا بد، على كل حال، من ملاحظة ان المرحوم المينوي ينسب رسالة بعنوان تحفة الملوك⁽¹³⁾ الى الغزالي. و في الباب الحادي عشر منها، و تحت عنوان «الحث على الجهاد» يدعو المسلمين و السلاطين و الامراء الى محاربة الصليبيين. و مما جاء في هذه الرسالة ما مضمونه: «و خير من ذلك ان تنفق العمر في رضا الله تعالى و ان تسترجع بيت المقدس، قبلة الانبياء، من ايدي الكفرة»⁽¹⁴⁾، و لكن بالنظر الى ان كاتب الرسالة يصدر مختلف الفتاوى بموجب الفقه الحنفي، يستبعد ان يكون كاتبها هو الغزالي الشافعي المتعصب.

و عالم آخر من العلماء و الفقهاء الذين عاصروا الحروب الصليبية هو شرف الدين ابو سعد عبدالله بن محمد بن هبة الله التميمي المعروف بابن ابي عصرون (492-585 هـ/1098-1189م)، و هو من الفقهاء و القضاة الشافعيين في العراق و الشام، و معاصر الاتابكيين في الموصل و الايوبيين، و يعتبر من اساتذة عماد الدين الكاتب الاصفهاني و المؤرخ المعروف. من مفاخره انه، بعد زوال الدولة الفاطمية في مصر على يد صلاح الدين، قام سنة 567 هـ (1171م) على راس وفد بالسفر الى بغداد الى الخليفة العباسي و بارك له عودة سلطة الخلافة العباسية على القاهرة [ابن الجوزي، 1412هـ، ج 10، 273] ان فرحة اهل السنة بالقضاء على الحكم الفاطمي كان على درجة حمل ابن الجوزي، المؤرخ المشهور، و صاحب المنتظم، ان يؤلف كتاباً في ذلك بعنوان النصر على مصر [ابن الجوزي، ج 10، 273] جاء في التاريخ انه بعد موت نور الدين زنكي، عقد امراء دمشق سنة 570هـ (1174م) معاهدة سلام مع المحاربين الصليبيين، دون ان ينبس ابن عصرون هذا ببنت شفة على الرغم من طلب صلاح الدين بعدم السكوت، فكتب اليه رسالة يوبخه فيها على صمته⁽¹⁵⁾ [ابو شامة، 1956-1962م، ج 1، 231] كثير من المؤرخين المبرزين، مثل ابن الاثير، جعلوا احد الاسباب المهمة للحروب الصليبية هو خوف الفاطميين من نفوذ السلاجقة الى مصر، و انه كان

الدافع لهم على تبادل الرسائل مع الصليبيين و دعوتهم للوقوف بوجه السلاجقة [ابن الاثير، ج 6، 337] على الرغم من ان الفاطميين كانت لهم مراسلات مع المسيحيين، و لكنهم في اول حرب لهم مع الصليبيين - و كانت اهم تلك الحروب و اوسعها - بذلوا تضحيات كبيرة، و هذه حقيقة اعترف بها المؤرخون المسيحيون المعاصرون لتلك الحروب، مثل ويليام صوري، و فوشه دشارتر يشيرون في كتبهم الى ان دولة الفاطميين كانت اقوى دولة اسلامية في المشرق دافعت عن كيان الاسلام⁽¹⁶⁾. فوشه دشارتر، الذي شهد الحملة الصليبية الاولى بصفة مؤرخ و مخبر، لم يشر في اي من مؤلفاته الى مذكرات الفاطميين و مراسلاتهم مع الصليبيين⁽¹⁷⁾. ان الاشارة الى معاهدة صلح بين المسيحيين الصليبيين و الفاطميين جاءت من جانب اهل السنة الذين كانوا يرون في الفاطميين عدوهم الاول ويسعون الى تشويه سمعتهم، و كذلك من جانب المصادر اللاتينية المعاصرة⁽¹⁸⁾.

تشير المصادر المسيحية و الاسلامية كافة الى انه بعد سقوط بيت المقدس، كان الافضل بن بدر الجمالي، وزير الفاطميين المستعلى بالله، اول المدافعين عن حريم المسلمين⁽¹⁹⁾. حتى ابو المحاسن بن تغرى بردى، المعروف بين المؤرخين بالتعصب ضد الفاطميين، كتب يقول: التحق افضل، بعد سقوط القدس الشريف، بجيش مصر المتجه الى الشام. و يضيف:

«فان الافضل شاهنشاه ابن امير الجيوش بدر الجمالي، بلغه ان الفرنج ضايقوا بيت المقدس، فخرج اليهم في عشرين الف من عساكر مصر وجد في السير» [ابن تغرى بردى، بلا تاريخ، ج 5، 145] ابن القلانسي ايضا يشير الى هذه الواقعة [ابن القلانسي، 1403هـ، 136] و لكيلا نطيل في المقال نهي هذه المقدمة و نرجع على الموضوع الاصيلي، اي آثار الحروب الصليبية.

آثار الحرب في جغرافية شرق البحر الابيض المتوسط

على اثر بدء الحملات الصليبية بدأت الهجرات الكبرى من الغرب الى الشرق، كما ان مناطق من شرق البحر الابيض المتوسط، و خاصة المناطق الساحلية، خلت، ببدء الحرب، من سكانها المسلمين و اصبحت ماوى للمسيحيين، من الجنود و غيرهم من المهاجرين. مثلا، اول اماره صليبية نشأت في جغرافيا الاسلام كانت (رها) او (ادسا) اكثر سكان هذه المدينة كانوا مسلمين، ثم من السريان و النسطوريين و الارمن. و عند هجوم الصليبيين اصبح معظم سكنة رها من المسيحيين اللاتين او المغاربة.

و في اماره اخرى، انطاكية - التي قال عنها ويلبراند انه رآها في 1212م - كان يسكن الاثرياء الافرنج و السريان و اليونانيون و الارامنة و المسلمون [قاسم عبده قاسم، 1990، 200] في سنة 1241م اشار فيتري الى ان المارونيين من الطبقات الرئيسية في المجتمع الشامي، فقال:

«المارونيون ينتسبون الى مارمارون، القسيس المسيحي في القرنين الرابع و الخامس الذين كانوا يسكنون شمال غربي سوريا، و هم في الاصل شعبة من الروم الشرقيين الذين سكنوا قبل الاسلام منطقة شمال سوريا، و على اثر الصراعات الطائفية في القرن السادس الميلادي، هاجروا الى شمال لبنان. و في الحروب الصليبية كان المارونيون من اهم المتعاونين مع الصليبيين، نظرا لان معظم هؤلاء كانوا من فرنسا. لذلك ففي سنة 648 هـ (1250م) عقدت معاهدة صداقة بين الروم و لويس التاسع، و قد جاء في الرسالة التي ارسلها لويس الى بطريق المارونيين:

اننا نتعهد بحماية الشعب الماروني كما نحمي الفرنسيين انفسهم، فالمارونيون جزء من الشعب الفرنسي» [قاسم عبده قاسم، 200]».

ان الآثار العمارة و البنايات الباقية في المنطقة من الصليبيين، و خاصة في لبنان، تدل على تزايد عدد المسيحيين بعد الحروب، على الرغم من ان العديد من العمارات غير العسكرية، قد انهارت لاسباب طبيعية او سياسية او دينية. و من تلك الابنية كنيسة ماريوحنا في جبيل بشمال لبنان، و كنيسة مارمقس في صور، و كنيسة ماريوحنا في بيروت [ناصر طاهري، 97-99] بالاضافة الى الاستعاضة بالمسيحيين في المنطقة، فان الاهمية الطبقيّة للمسلمين قد تغيرت ايضا بسبب الحرب. مثلا، الاكراد الذين كانوا يسكنون في المنطقة، اصبحت لهم اهمية خاصة بظهور صلاح الدين و دوره العسكري في الحروب الصليبية، و كثيرا ما جرت مصادمات بينهم و بين التركمان و خلقوا بعض المشاكل [احمد رمضان، 1977م، 55] بعد احتلال بيت المقدس و اخراج باقي المسلمين و حتى اليهود، اصبحت هذه المدينة عاصمة للمسيحيين في قلب العالم الاسلامي.

على اثر تلك التطورات في الجغرافية المدنية للشام، هاجرت اعداد كبيرة من مسلمي الشام الى مصر، و بعد اخفاق الصليبيين في الاستيلاء على مصر كما استولوا على الشام ازدادت الهجرة اليها⁽²⁰⁾. اما المسلمون الذين كانوا يسكنون المناطق الداخلية من الشام بصفتهم اقلية، فقد حافظ بعضهم على معنوياتهم و تعاونوا مع المحاربين المسلمين. يقول اسامة بن منقذ ان المسلمين من سكنة عكا كانوا يخفون الاسرى من المسلمين و يهربونهم الى المناطق الاسلامية الاخرى [اسامة بن منقذ، 1981م، 82] هذه الاقلية من المسلمين في المناطق المحتلة سعوا الى الاحتفاظ بهويتهم الدينية و الثقافية في قبال الاكثرية الصليبية⁽²¹⁾، على الرغم من ان التاريخ يذكر لنا ان المسلمين في بعض المناطق اضطروا، تحت ضغط المحتلين الصليبيين و ظلمهم الشديد، الى ترك دينهم و اعتناق المسيحية للبقاء على حياتهم⁽²²⁾.

انتشار التصوف و الدروشة كان من النتائج السلبية للحروب الصليبية. ان التشنت السياسي في العالم الاسلامي قبل الحروب الصليبية - الذي كان بذاته من الاسباب المهمة في تقدم الصليبيين في حروبهم - تحول الى نوع من اللابالية عند المسلمين بعد الحرب الصليبية الاولى و احتلال بيت المقدس. بعد احتلال القدس الشريف، عندما قام اهل الشام بصحبة قاضي دمشق بالسفر الى الخليفة في بغداد و طلبوا عونه باكين، حال الخصام و النزاع السياسي و الفكري فيما بين الدول الاسلامية دون حصولهم على المساعدة المطلوبة. و بعد الحرب الصليبية الاولى، التي ادت الى احتلال الصليبيين الكثير من الارض الاسلامية، انتشرت روح اللابالية و حب العزلة انتشارا واسعاً بين اهل الشام و طلاب الحق في تلك الديار، في الوقت الذي كانت فيه النساء المسيحيات ياتين من الغرب لاعانة رجالهن و يحاربن جنبا الى جنبهم، بينما هرب اكثر المسلمين من الحرب، و بدلا من امتشاق الحسام و محاربة العدو، راحوا يرفعون ايديهم بالدعاء. يخاطب القاضي الفاضل العسقلاني كاتب صلاح الدين الايوبي قائلا:

ليس لك من المسلمين كافة مساعدة الا بدعوته، و لا مجاهد معك الا بلسانه . . . تدعوهم الى الله و كأنما تدعوهم لنفسك، و تسالهم الفريضة و كأنما تكلفهم النافلة [ابو شامة، ج 2، 166] عمادالدين الكاتب الاصفهاني ايضا يقول في احدي رسائله:

و ما ينقضي عجبنا من تضايف المشركين و قعود المسلمين . . . و ليس احد من الفرنجة يستشعر ان الساحل اذا ملك و رفع فيه حجاب عزهم و هتك، يخرج بلد عن يده و تمتد يد الى بلده، و المسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا و قشلوا و غفلوا و كسلوا و لزموا الحيرة و عدموا الغيرة. {الاصفهانى، 1331 هـ، 47} احد الشاميين المجاهدين يخاطب صديقه الذي فر من الجبهة و عكف في المسجد يدعو و يتعبد، فيقول له موبخا:

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا لعلمت انك في العبادة تلعب
من كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الكريهة تتعب
لو كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا نتخضب
ريح العبير لكم و نحن عبيرنا رهب السنابك و الغبار الاشهب
و لقد اتانا عن مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في انف امرئ و دخان نار تلهب

{الكيلاني، 1982، 44}

من القاعدين الآخرين الذين انزلوا في معاكفهم يتغنون بوصف الشراب و المعشوق، ولم يستخدموا شعرهم حتى في تحريض المسلمين على الجهاد و مقارعة الاعداء، كان ابن الفارض⁽²³⁾.

كان لحالة اللابالية و الضعف نتيجة اخرى، و هي انصراف الناس و العلماء الى الاحلام و رؤية الانبياء و الاولياء في المنام، بحيث ان كآبتهم و قلقهم من احتلال المدن الاسلامية عاجوها، بدلا من الحرب، بالرؤى و الخيال. فمثلا، ابو الحسن الهروي⁽²⁴⁾، الرحالة المعروف الذي فقد امواله و كتبه في الحملات الصليبية [ناصرى طاهري، 79]، يقول في كتاب رحلاته:

و دخلت عسقلان سنة سبعين و خمسمائة، بت في مشهد ابراهيم «عليه السلام» و رايت في ذلك الموضع رسول الله في المنام و هو بين جماعة، فسلمت عليه و قبلت يده و قلت: يا رسول الله ما احسن هذا الثغر لو انه للاسلام. فقال: سيصير للاسلام و يبقى عبرة للانام. فاستيقظت و كتبت صورة ما رايت على حائط . . . و فتح القدس و عسقلان سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة [. . . الهروي، 1953، 32] هذا كان الاتجاه الفكري يومذاك و الذي انبرى لمكافحته بعد ذلك ابن تيمية، و تلميذه ابن قيم الجوزية⁽²⁵⁾.

من جهة اخرى، عند مطالعة كتب تاريخ الفن و العمارة الاسلامية نلاحظ انه في العصرين الايوبي و المماليك، كان في مصر و الشام العديد من التكايا و الزوايا بحيث اننا لا نرى مثل ذلك قبل الايوبيين⁽²⁶⁾. و كان هناك اصحاب الطرق و الفرق الصوفية الكثيرة التي تشكلت خلال تلك الفترة، مثل الفرقة الاحمدية التي انشأها السيد احمد البدوي سنة (596- 675 هـ/ 1199- 1276 م .) في طنطا بمصر⁽²⁷⁾، و الفرقة الرفاعية المنسوبة الى احمد الرفاعي (متوفى 578 هـ/ 1183 م)، و الفرقة الشاذلية المنسوبة الى ابي الحسن الشاذلي (متوفى 656 هـ/ 1259 م)، و الفرقة المولوية في آسيا

الصغرى في القرن السابع الهجري [حنا الفاخوري و خليل الجر، ج 1، 300] و لا بد من القول انه على الرغم من ان التصوف قديم، الا ان تقدمه و تكامله تحققا في شرق البحر الابيض المتوسط نتيجة للحروب الصليبية، و هذه الحركة السلبية اوجدت بذاتها حركة جديدة في الاسلام هي الحركة المضادة للتصوف التي تزعمها ابن تيمية.

خلال الحرب الصليبية، في شرق البحر الابيض المتوسط، خاصة في عصر المماليك، ظهرت امراض اجتماعية كبيرة، كالتحلل، او الدعارة، التي كانت ظاهرة اجتماعية منظمة، و كانت الدولة تتقاضى ضرائب عن ذلك. لقد كان توسع فعاليات (بنات الليل) و (المطربات و المقرنات) الى درجة انه كانت هناك شخصية بصفة (ضامنة المغابن)⁽²⁸⁾ مسؤولة عنهن و تدفع ضرائب معينة.

من نتائج تلك الحرب ايضا الانحراف الجنسي. ان انتشار هذه الظاهرة او المفسدة الاجتماعية برزت بشكل اشعار الحب من النوع النواصي، و كان هذا الاسلوب رائجا في عصر المماليك⁽²⁹⁾.

في القرون الاسلامية الاولى كان الدافع لتشكيل الجيش و النظام دينيا و عقائديا. كان الناس يعتقدون بالاصل الديني، الجهاد ضد الاعداء الخارجيين او للمقاومة او لاحتلال البلدان، و لكن بعد اتساع الدولة و دخول عناصر جديدة من حديثي الاسلام الى العالم الاسلامي، تغير جيش الاسلام ايضا، اي ان القطاع العسكري توسع كثيرا. ان الحرب الصليبية في شرق البحر الابيض المتوسط ادت الى ان يتوسل رجال الدولة بهذا الاسلوب لتعبئة القوة العسكرية، فوهبوا اراضي للامراء و القواد العسكريين لقاء ضمان حشد القوات العسكرية للحرب. الا ان هذه الظاهرة تغيرت ايام صلاح الدين الايوبي، ثم تكاملت في عهد المماليك.

في العهد الايوبي كانت الاقطاعات وراثية كما كان الاقطاع وراثيا في اوربا في القرون الوسطى و على اعتاب الحروب الصليبية، و لكن بعد تغيير العلاقات التي كانت تتحكم في ذلك على عهد المماليك، تحول الاقطاع الوراثي الى اقطاع خاص، و اصبح للسلطان المملوكي الحق في استرجاع الارض المقطوعة، و لم يعد يحق للامير او القائد ان يوصي بتلك الارض الى اولاده⁽³⁰⁾. لذلك فان اتساع النظام الاقطاعي و تحوله من الاقطاع الوراثي الى اقطاع غير وراثي، كان من المميزات البارزة لعصر المماليك و من آثار الحروب الصليبية.

ينبغي ايضا ان لا نغفل عن تأثير الحروب الصليبية في ثقافة المسلمين و ادبهم يومذاك، فقد دخلت الفاظ اجنبية الى النصوص العربية، و ظهر شعر الاستغاثة و كان لعن المسيحيين و الطعن فيهم بلغة الشعر من مصاديق ذلك.

كان من نتائج الاحتكاك بين الابداء المسلمين و الصليبيين ان دخلت الفاظ اجنبية افرنجية الى اللغة العربية، من ذلك مثلا، في معرض الكلام على الصلح بين صلاح الدين و الصليبيين بشأن محاصرة العدو مدينة عكا و قبوله الفدية للسماح للمسلمين بالخروج منها، عبر ابن شداد عن ذلك بقوله:

« . . . فدية تدفع في تروم⁽³¹⁾ ثلاثة، كل ترم شهر . . . ». {ابن شداد، 1964م، 172} و المقريري ايضا استعمل كلمة قومص اللاتينية [المقريري، ج 1، 92] و استعمل لفظة افرنس بمعنى فرانسة، و رين بمعنى ملك [المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، 1962م، 63]، و النويري استعمل لفظة واسال [المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، 62]، و ابن الاثير في كتابه، و تحت احداث سنة 523

ه، عند كلامه على محاصرة الصليبيين دمشق يستعمل ايضا كلمة قومص، فيقول: « . . و غيرهم من الفرنج و قامصتهم . . » [ابن الاثير، ج 6، 617]، و ابن تغرى بردى يستعمل سير بمعنى السيد [ابن تغرى بردى، بلا تاريخ، ج 7، 32] الطعن بالمسيحية و اليهودية و ساير الملل و النحل، وكذلك الاستغاثة و البكاء و المدح كانت من الاغراض التي دخلت الى الشعر العربي [الكيلاني، 273] كما ان فن الخطابة و الاسترسال تقدما بشكل ملحوظ⁽³²⁾.

كذلك الحال مع فن تدوين احاديث الجهاد، كما جاء في كتاب الترغيب و الترهيب تاليف زكي الدين بن عبدالقوي المنذري [ناصرى طاهري، 55] من آثار الحروب الصليبية الاخرى في الادب العربي هو انتشار ملحوظ في كتابة الفضائل⁽³³⁾.

الازدهار التجاري في بعض مدن شرق البحر الابيض المتوسط يعتبر ايضا من الآثار الاقتصادية للحروب الصليبية. لقد لعبت الشام، من اقدم الازمنة، دورا بارزا في التجارة الدولية. وفي مرحلة الحروب الصليبية، و للدوافع الاقتصادية و التجارية الغربية، و خاصة الجمهوريات الايطالية، اتسع ذلك الدور و برز اكثر بحيث استقر التجار الاوروبيون في اكثر المدن و الموانئ في شرق البحر الابيض المتوسط، و في عصر المماليك و انتهاء الحروب الصليبية انشا بعض الشركات الاوروبية ممثلات لها في الشام، مثل شركة فلورانس (باردي) التي كان لها فرع في بيت المقدس [مجلة الدراسات التاريخية]، العددان 23 و 24، ص 86] ان حسن تعامل المماليك مع التجار الاوروبيين زاد من توجه الغربيين الى الشرق و التجارة مع المسلمين. و لضمان امن الطرق وضع المماليك الحراس، و بنوا الخانات و الفنادق على الطرق.

الازمة العسكرية في منطقة الشام، شمال البحر الاحمر، اجبرت المسلمين من الاندلس و شمال افريقيا الراغبين في الحج على اتخاذ طريق نهر النيل الى «قوص» و «عيذاب» و من ثم الى جزيرة العرب، فكان ان ازدهر اقتصاد المنطقتين المذكورتين [ناصرى طاهري، 103]

الهوامش:

1. لمعرفة المزيد عن تدوين تاريخ الحروب الصليبية انظر: ناصرى طاهري، عبدالله، اسباب ونتائج الحروب الصليبية، طهران، 1373 هـ . ش 1995 م بالفارسيه.

2. في هذا الكلام المثير، الذي يعرف باسم رسالة البابا التاريخية، يعتبر تكرار Duse Lovis اشارة الى ان الله قد استنهض المسيحيين.

3. استنادا الى هذه النظرة ينبغي ان ينظر الى الحوار عن التقريب بين المذاهب نظرة شك.

4. اسم قلعة كبيرة في جنوب الاردن.

5. محمد بن عبدالله العامري، المعروف بالمنصور الحاجب، او منصور بن ابي عامر، كان من امراء الحكومة الاموية في الاندلس على عهد هشام الثاني، و الذي امسك الامور بيده، بالنظر لعدم لياقة الخليفة، و حكم مدة 27 سنة [الاعلام، ج 6، 266]

6. منذ انقراض الحكم الاموى في الاندلس، و قيام نظام ملوك الطوائف، عقد المسيحيون عزمهم على طرد المسلمين، فقام [الفونس السادس بمهاجمة المسلمين في طليطلة، فهرع يوسف بن تاشفين الى اعانتهم، و هزم المسيحيين، يعتقد ماركس ان حملة الفونس كانت مقدمة للحرب الصليبية الاولى [الصليبيون في الشرق، 26]

7. ان حرب السلاجقة مع الروم في اسيا الصغرى في نحو سنة 440 هـ، و من بدء عصر طغرل بيك و قسطنطين التاسع، جديرة بالذكر. رانسيمان من المؤرخين المحدثين و ويليام صوري من المؤرخين القدامى، يعتبران حرب (ملازجرد) تسويغا للحملة الصليبية، لان هزيمة (ملازجرد) كشفت عن ان بيزنطة لم تعد قادرة على بسط حمايتها على المسيحيين في المشرق. هناك، بالطبع، من يعتقد مثل دالبرك، انه قد بولغ في اهمية حرب (ملازجرد) [رانسيما، 89]

8. لمزيد من التفصيل انظر: بعلبك مدينة الشمس و حلب مدينة النجوم، 84 .

9. رانسيمان يعتقد ان المسيحيين على عهد الحاكم بامر الله قد تعرضوا للاذى و التعذيب [رانسيما، 99]

10. لمعرفة المزيد عن الفكر السياسي للغزالي، انظر: الغزالي، ابو حامد محمد، فضائح الباطنية و فضائل المستطهرية و الاقتصاد.

11. في الفترة المذكورة كان الغزالي في الشام.

12. هذا الكتاب من تاليف الغزالي و تحقيق عبدالله الشرقاوي. و في سنة 1403هـ قامت دار امين للنشر و التوزيع بطبعه [الرد الجميل لالوهية عيسى بصريح الانجيل]، 25 و 26.

13. طبعت هذه الرسالة دار نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة سنة 1993.

14. طبعت هذه الرسالة كملحق لكتاب اسباب و نتائج الحروب الصليبية. بالفارسيه

15. ينقل ابو شامة عن عمادالدين الكاتب الاصفهاني [صادق احمد جودة، المدرسة العسرونية في بلاد الشام، 198]

16. عنوان هذا الكتاب هو A Histoy of Deeds Done Beyond the Sea و قد ترجمه الدكتور زكار بعنوان تاريخ الحروب الصليبية - الاعمال المنجزة فيما وراء البحر طبعته سنة 1410هـ في دمشق دار الفكر.

17. عنوان الكتاب هو Gesta Francorum Therusalem Peregrinatiam ترجمه الدكتور زياد العسلي سنة 1990 بعنوان تاريخ الحملة على القدس و طبعته في عمان دار الشرق.

18. للدكتور صلاح الدين محمد نوار، استاذ جامعة القاهرة، بحث ضاف في كتابه العدوان الصليبي على العالم الاسلامي، طبع دار العودة للطبع و النشر والتوزيع في الاسكندرية في طبعته الاولى.

19. انظر: صوري، ويليام، تاريخ الحروب الصليبية . . المذكور. دشارتر، فوشه، تاريخ الحملة على القدس المذكور. ابن طوير، نزهة المقلتين في اخبار الدولتين. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة. ابن ميسر، اخبار مصر. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.
20. انظر: ابن ابيك دوادار، كنز الدرر و جامع الغرر، ج 8، 361. المقرئزي، المواعظ والاعتبار . . . ، ج 1، 73. قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، 29 و 30.
21. انظر: براور، يوشع، عالم الصليبيين، 98- 100. ابن جبير، رحلة، 276، 279، 291.
22. انظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية.
23. ابو حفص عمر بن علي المعروف بابن الفارض (576- 632 هـ) من كبار شعراء التصوف، و يعرف بسطان العاشقين [ديوان ابن الفارض، المكتبة الثقافية، بيروت، بلا تاريخ]
24. علي بن ابي بكر الهروي، رحالة من القرن السادس الهجري و صاحب رحلة باسم الاشارات الى معرفة الزيارات.
25. انظر: ابن قيم الجوزية، رسائل ابن تيمية و اغائة اللهفان في مصايد الشيطان.
26. امثال هذه العمارات في بيت المقدس اكثر في العصرين الايوبي و المماليك.
27. يقول هاملتون جب ان زعيم الفرقة الاحمدية الذي كان من اتباع الرفاعي، اشترك في حرب المنصورة الصليبية التي شنها لويس، ملك فرنسا [الاسلام: دراسه تاريخيه و علميه و ثقافيه، ترجمه منوچهر اميري، ص 177 1367 هـ ش 1988 م بالفارسيه] كاتب هذه السطور لم يعثر على المصدر الذي نقل عنه هاملتون جيب.
28. هذا التعبير استعمله قاسم عبده قاسم في اثر الحروب الصليبية في العالم العربي [مجموعة موسوعة الحضارة العربية الاسلامية، ج 3، 16]
29. انظر: المقرئزي، [السلوك في معرفة الدول و الملوك، ج 2، 661 و 662]، و المواعظ والاعتبار . . . ج 2، 34 و 169. السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، 103 و 104.
30. انظر: ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 9، 43 و ما بعدها. سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر السلاطين و المماليك، 48 و 52. قاسم عبده قاسم، دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي، 19، 23.
31. تروم جمع ترم.
32. مثلا، يمكن الاشارة الى خطبة ابي زكي الدين عند فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين الايوبي، تجد هذه الخطبة في قسم الملحقات في كتاب اسباب و آثار الحروب الصليبيه بالفارسيه.

33. فيما يتعلق بأسلوب تدوين الفضائل، انظر نصري طاهري، عبدالله، اسباب و نتائج الحروب الصليبية، طهران، 1373 هـ. ش 1994 م. و بيت المقدس مدينة الانبياء، للمؤلف نفسه.

المصادر:

- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، تحقيق علي شبري، دار احياء التراث العربي، بيروت ، 1408هـ.
- ابن ابيك دوداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج 6، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، المعهد الالمانى، الأثار، 1961م.
- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، بلا تاريخ.
- ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك و الامم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا و مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412 هـ.
- ابن قيم الجوزية، اغائة اللهفان في مصاديد الشيطان، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1308.
- ابن شداد، النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف و الترجمة، القاهرة، 1964م.
- ابن طوير، نزهة المقلتين في اخبار الدولتين، تحقيق ايمن فؤاد السيد، دار النشر فرانتس شتاينر، شتوتگارت، المانيا، 1412هـ.
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار حسان، 1403هـ.
- ابن ميسر، اخبار مصر، ايمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، 1981م.
- ابو شامة، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي محمد احمد، القاهرة ، 1956- 1962م.
- اسامة بن المنقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1981م.
- الاصفهاني، عمادالدين، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق مصطفى فهمي، مطبعة الموسوعات، 1331هـ، بلا تاريخ.
- المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، تأليف نظير احسان السعداوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1962م.
- الحائري، عبدالهادي، اول مواجهات المفكرين الايرانيين، امير كبير، طهران، 1367 هـ. ش 1988 م.
- حنا الفاخوري، و خليل الجر، تاريخ الفلسفة في العالم الاسلامي، ترجمة عبدالمحمد آيتي، مؤسسه الثورة الاسلاميه للنشر و التعليم.

- دورانت، ويل، تاريخ الحضارة، ج 4، الفصل الاول، ترجمه ابو طالب صارمي، ابوالقاسم باينده و ابوالقاسم طاهري، مؤسسه الثورة الاسلاميه للنشر، طهران، 1368 هـ. ش 1989 م. بالفارسيه
- المصدر نفسه، الفصل الثاني، ترجمه ابوالقاسم طاهري، طهران، 1367 هـ. ش 1988 م. بالفارسيه
- رانسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمه منوچهر كاشف، شركه دار النشر العلميه والثقافيه، طهران، 1371 هـ. ش 1992 م.
- زابورف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمه الياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986 م.
- زكي مبارك، الاخلاق عند الغزالي، دار الشعب، القاهرة، 1970 م.
- عبدالكريم عثمان، سيرة الغزالي و اقوال المتقدمين فيه، دمشق، دار الفكر العربي، بلا تاريخ.
- الغزالي، ابو حامد محمد، فضايح الباطنية و فضائل المستظهيرية، تحقيق عبدالرحمن بدوي، دار الكتب الثقافية، الكويت.
- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990 م.
- قدرى قلعي، صلاح الدين قصة الصراع بين الشرق و الغرب . . . ، دار الكتاب العربي، 1399 هـ.
- الكيلاني، السيد محمد، الحروب الصليبية و اثرها في الادب . . . الناشر دارف المحدودة ، لندن، 1985 م.
- محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق و المغرب، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1982 م.
- المقريري، المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار (خطط المقريري)، بولاق، 1270 هـ.
- نفسه، السلوك في معرفة الدول و الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التاليف و الترجمة و النشر، 1956 م.
- ناصر خسرو، سفرنامه، باهتمام محمد دبيري سياقي، زوار، طهران، 1370 هـ. ش.
- ناصري طاهري، عبدالله، بعلبك مدينه الشمس و حلب مدينه الكواكب، دار نشر سروش، طهران، 1366 هـ. ش 1987 م.
- نفسه، بيت المقدس مدينه الانبياء (ع)، دار نشر سروش، طهران، 1367 هـ. ش 1987 م.
- الهروي، ابو الحسن، الاشارات الى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل طومين، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، 1953 م.
- Gabriel, Arab Historian, pp . xxxvI: Idem, Arabic History, Raphy, p.98.